من هنا، فإن المسألة الأساسية التي كانت تشغل الفلاح، في علاقته بالقوى فوق الطبيعية، هي حياته بعد الموت، اي البعث، بل ان هذه كانت تشكل الموضوع الرئيسي في الديانة المصرية القديمة عموماً. وبما ان مسألة البعث هذه هي مسألة فردية فإن الوساطة بشأنها لم تكن ذات اهمية جوهرية بالنسبة للفلاح، خاصة وان الوجه الآخر لتلك الوساطة هو المساس بناتج جهده وعمله ــ أي تكريس حق الدولة المركزية في ملكية هذا الجهد وناتجه ــ، وعندما تكون هذه الوساطة ــ أي المؤسسة الدينية، او الصيغة الدنيوية للدين ــ ذات اثر سلبي على الفلاح، وعلى ناتج جهده وعمله، فإن هذا كان يجد المبرر الخلقي والمنطقي للتخلي عن هذه الوساطة دون ان يرى في ذلك انتقاصاً من «ايمانه» الذي يشكل علاقته الخاصة بقوى ما فوق الطبيعة، اي بالآلهة او بالاله. وهذا ما يفسر لماذا اقترنت بعض ثورات المصريين القدامى بموقف متمرد ضد بعض رموزهم الدينية، ولماذا سعوا، من خلال بعض هذه الثورات، للحصول على حقهم في ممارسة بعض الشعائر الدينية مستقلين عن الفرعون وعن المؤسسة الدينية التابعة له، كذلك يفسر لماذا غير المصريون ديانتهم بعد ذلك اكثر من مرة، حينما تركوا دياناتهم القديمة واعتنقوا المسيحية، ثم تركوا المسيحية واعتنقوا الاسلام، ثم تبنوا المذهب الشيعي واستعانوا بالفاطميين ضد دولة الاخشيديين (السنية)، ثم عادوا وثاروا على الفاطميين وقبلوا العودة الى المذهب السني حينما امسك صلاح الدين الأيوبي بالسلطة المركزية (١١٧١م). ومن المهم ملاحظة ان المصريين حينما تحولوا الى المذهب الشيعي لدوافع سياسية واجتماعية، فإنهم، كما سنوضح فيما بعد، رفضوا، في هذا المذهب، جانبين: الإمامه والموقف العدائي للصحابة. وحينما قبلوا بالانقلاب السني الذي احدثه صلاح الدين الايوبي فإنهم ظلوا محتفظين ببعض تقاليدهم الشيعية وثاروا ضد الدولة الايوبية «السنية» وبخاصة في فترة حكم الملك العادل (١٢٠٠ ــ ١٢٩٨).

كذلك، فإن وقائع تاريخ مصر الحديث تأتي دليلاً على ان الانسان المصري يعتبر موقفه الديني علاقة خاصة وفردية بينه وبين الله، وانه كما يرفض الوساطة في هذه العلاقة، فإنه على استعداد لتقبل مواقف سياسية واجتماعية، حتى وان كانت على اسس غير دينية، طالما ان ذلك يحقق له مصالحه الاقتصادية والاجتماعية. فقد التف المصريون بقوة حول القيادة العلمانية للثورة العرابية رغم ان اول برامجها ــ أي بيان الحزب الوطني الأول ــ كان ينص على ان هذا الحزب هو حزب سياسي غير ديني، وفقدت القيادة الدينية، منذ ذلك الوقت، موقعها كقيادة سياسية، وكذلك التف المصريون التفافاً رائعاً حول حزب الوفد وقيادته العلمانية، وعجز تحالف السراي الملكي مع القيادة الدينية التقليدية (مشايخ الأزهر) والقيادة الدينية السياسية السلفية الجديدة (الأخوان المسلمون) عن النيل من شعبية حزب الوفد وبخاصة لدى الفلاحين، كما عجز هذا التحالف عن ان يقدم نفسه كبديل منافس للوفد في قيادة الشعب. ومرة أخرى، لم تهتز شعبية جمال عبد الناصر لدى الغالبية العظمى من الشعب رغم العنف الذي تعامل به مع «الاخوان المسلمين»، ورغم انه حول الأزهر من جامعة دينية الى جامعة علمية حديثة، ورغم انه الغى المحاكم الشرعية وحول قضايا الأحوال الشخصية الى القضاء الأهلي والعلماني.